تاريخ اشور

لجناب الاديب جميل افندي نخلة المدوّر

جغرافية بابل واشور

ذكر مملكة بابل ومدنها المشهورة

يحدُّ مملكة بابل شمالاً ما بين النهرين وجنوباً خليج فارس وغرباً شبه جزيرة العرب وشرقاً بلاد شوشانة ويمرُّ في ارضها نهرا الفُرات ودِجْلة متجهيْن من الشمال الى الجنوب. وهذه المملكة تنقسم في نفسها الى قسمين احدهما بلاد بابل على الخصوص وهي الواقعة ما بين النهرين المذكورين والآخر بلاد الكلدان وهي ما يليها من ملتقى النهرين الى خليج العجم. وكانت هذه المملكة في قديم الزمان معمورة بالمدائن الكبيرة والاسوار الحصينة والقصور الرفيعة والهياكل الشاهقة والابنية المشهورة كما سنذكرهُ فيما بعدُ الاَّ انهُ لم يبقَ من جميع ذلك الاَّ بقايا رسوم يُستدَلُّ بها على مواقع بعض تلك المدن كمدينة بابل وأَرَك وأَكَّد وكَلْنة (وهي أُور الكلدانيين) وبورسيبا وايس او ايوبولبس وصيدة وسلوقية واكتزيفون وغيرها وهي اشهر ما عُرِف من تلك المدن واشهرها مدينة بابل لانها كانت اعظم مدائن آسية واكثرها ثروةً وعمراناً وامنعها عزّةً وسلطاناً حتى بلغت من السطوة والعزّة ما لم تبلغهُ مدينة قبلها من المدن التي تقدّمتها في تاريخ العمران ولذلك يقدّمها الكتاب في الذكر على سائر مدن شنعار

وكان موقع بابل على نهر الفرات على ٤٢° من الطول الشرقي و٣٠′ ١٩° من العرض الشمالي وفي تسميتها ببابل اقوال اشهرها انها انما سُمِّيت بذلك اخذاً من بلبلة الالسنة فيها على ما ورد في سفر التكوين (ص١١) من ان بني نوح لمَّا ارتحلوا من المشرق ونزلوا بشنعار اخذوا في بناء برج يبلغ الى السماء فبلبل الله تعالى السنتهم حتى صار بعضهم لا يفهم لغة بعض فكفُّوا عن بناء البرج ولذلك دُعِيَت المدينة بابل اه. وهي كلمة عبرانية معناها على هذا البلبلة. وفي رواية ان قوماً من الاقدمين بنوا هناك هيكلاً يجلسون ببابهِ لقضاء دعاويهم وفض خصوماتهم فسُمِّيَت المدينة بابل واصلها على هذا باب ايل اي باب الاله. وقيل اصل اللفظة باب ابلو وهو الهٌ لقدماء السامين وهو المسمَّى اشور ايضاً الى غير ذلك من الاقاويل المبنية على ما تحتمله اللفظة من التفسير والتأويل

وقد اختلفت آراء قدماء المؤرّخين في زمن تخطيطها فمنهم مَنْ ذهب الى ان بانيها بعلوس وهو زُحَل عند اليونان وقال آخرون ان اوّل من وضع أُسُسها الملكة سميراميس زوج نينوس وقال ديودورس الصقلي وامبانوس مرسلينوس ان نينوس بنى هيكل بعلوس وسميراميس زوجهُ بنت اسوار بابل. وفي ذلك بحثٌ هل سميراميس المذكورة هنا هي نفس سميراميس التي يذكرها هيرودوطس

فان هذه كانت قبل الميلاد بما ينيف على الفي سنة وتلك كانت قبل التاريخ المذكور بمدة ليست اكثر من ٨٣٠ سنة . ولعل الصحيح في ذلك كما قاله بعض الثقات ان سميراميس هذه التي ذكرها ديودوروس واميانوس لم يكن لها وجودٌ اصلاً واما الثانية فهي سَمُوراميت امرأة بعلوخوس الثالث الذي كان مالكًا في اواسط القرن التاسع قبل الميلاد وعليه فقول هيرودوطس هو الصواب. وذهب قوم من قدماء المؤرخين وتابعهم بعض المتأخرين الى عكس ما ذُكِر وخطَّأوا مقالة هيرودوطس في كلام قالوا فيه انهُ اراد ان يذكر خمسة عشر زمنًا فذكر خمسةً الى آخر ما اوردوهُ والاقاويل في ذلك كثيرة والاصوب ما اثبتناهُ وهو قول هيرودوطس . وزعم البابليون والقول لكهنتهم الكلدان ان مدينة بابل بناها الله من آلهتهم في زمنٍ لا يُعرَف بالتعيين. وذهب مؤرخو الرومان واليونان مع الباحثين المعاصرين الى ان بناءها كان عقب الطوفان بزمنٍ يسيرٍ خلافًا لما ذكرهُ بيروسوس من ان عشرة من ملوك الكلدان تداولوا سلطنة بابل قبل الطوفان . ثم يُستدَلُّ من فحص الآثار التي كُشِفَت في عصرنا هذا جنوبي المدينة ومما وَرَد في التاريخ القديم انها لم تكن في بدآءة الامر عاصمة مملكة ولا مدينة عظيمة الشأن والثروة والظاهر انها انما أُثِرَت بالمنزلة الاولى بين مدن نمرود لما وصلت اليهِ بعد ذلك من العظمة والأُبَّهة على ما اسلفنا ذكرهُ قُبَيل هذا لانهُ قد عُلِمَ ان كثيرًا من المدن كانت قد بلغت المبالغ العظيمة من العزّة والغنى وكانت بابل اذ ذاك قريةً دنيئة. ولما كان الفُرات يخترق المدينة وعند ذوبان الثلج المتراكم على جبال ارمينية في مدّة الصيف يتسبَّب عنهُ طغيان النهر فتُتلِف مياههُ كثيرًا من الاراضي المجاورة له فتح لهُ اهل بابل ترعةً عظيمة تصرف تلك المياه الى نهر دجلة قبل مرورها في اراضيهم ولزيادة الطمأنينة بنى سُمُورابي احد قدماء ملوكهم في بابل الرصيفين اللذين رمَّمها نبُختنصَّر في القرن السادس قبل الميلاد فازدادت بذلك شهرتها لما في وضع هذين البناءين من الحكمة والاتقان. ثم اختار نبختنصَّر موضعًا منحطًّا عن بابل وامر ان يجعلوهُ حفرةً لتحفل فيهِ مياه النهر فما زالوا يحفرون حتى بلغوا الماء وجعلوا محيط الحفرة على قول هيرودوطس الذي نسبها الى نيتوكريس والدة نبختنصَّر اربع مئةٍ وعشرين استادة[1] وهي نحوٌ من ٧٧ كيلومترًا . وكان الفُرات قد قسم بابل الى شطرين فكان من رام الانتقال من جانبٍ الى آخر يضطرُّ ان ينزل في الزوارق الّا ان ذلك كان لا يخلو من خطرٍ حين طغيان النهر ولذلك رأى الاهلون ان يبنوا جسرًا فاخذوا في قطع الحجارة الكبيرة ثم حوَّلوا النهر عن مجراهُ الاصلي وضمُّوا الحجارة بعضها الى بعضٍ بالرصاص المُذاب وداموا على عملهم هذا مدةً مستطيلة حتى انمُّوهُ ثم اعادوا المياه الى مجراها . انتهى عن هيرودوطس

ومما زاد بابل شهرةً هيكل بعلوس والقصر الملكي وحدائقهُ المعلَّقة. اما الهيكل فقد ذكرهُ جماعةٌ في

(١) قالوا ان الاستادة تكون ١٨٥ مترًا

جلتهم ديودورس الصقلي وذكر ان بانيه بعلوس وروى غيرهُ انهُ بخنتصّر والصحيح ان بخنتصّر انما جدّد بناءهُ بعد خرابهِ على ما سنورد تحقيقهُ وقد عاين هيرودوطس اليوناني مدينة بابل في اواخر القرن الخامس قبل الميلاد وكانت قد انحطّت عن عظمها الاولى ووصف في جملة ما شاهدهُ هيكل بعلوس بما تلخيصهُ . ان في كل شطر من شطري المدينة ما يستحق الذكر ففي احدهما بلاط الملك وهو فسيح محكم الاتقان وفي الآخر هيكل بعلوس وهو باقٍ الى الآن على شكل مربع طولهُ استادتان في عرض مثلها ولهُ باب من النحاس وفي وسطهِ برج حصين طولهُ استادة في عرض مثلها وبعلوهُ برجٌ وفوق البرج برج آخر وهكذا الى ثمانية ابراج بعضها فوق بعض يُرقى الى كلٍّ منها بسلالم من الخارج وفي وسط الابراج مقاعد يستريح فيها الراقي اليها . وفي الاعلى منها معبد وسرير كبير وبجانبهِ مائدة ذهبية وفي الاخير مسجد لبعلوس بوبتير وفيهِ سرير كبير حسن الفرش وبجانبهِ مائدة ذهبية وليس فيهِ صور وتماثيل كما في غيرهِ . ولا يبيت فيهِ احدٌ ليلاً الاّ ان تكون امرأةٌ وقع عليها اختيار الاله تبعاً لما يقول كهنة الكلدان وعندي ان ذلك كلامٌ لا صحة لهُ . وفي الهيكل مسجد سفلي وفيهِ تمثال كبير من الذهب بمثل بوبتير قاعدًا وكرسيهُ وموطئ قدميهِ وبجانبهِ مائدة وجميعها من الذهب الخالص تساوي على قول الكلدان ٨٠٠ زنة من الذهب[1] . وفي خارج هذا الهيكل مذبحان احدهما من الذهب ولا يضحّى عليهِ الاّ بما كان صغيرًا من الحيوان والآخر كبير اعدّهُ الكلدان للذبائح الكبيرة المألوفة وكانوا يوقدون على المذبح كل سنة في عيد الاله ثلاثة آلاف اقة من البخور . وكان في المقدس اذ ذاك صنم كبير من الذهب الخالص لبوبتير بعلوس قاعدًا وارتفاعهُ اثنتا عشرة ذراعًا بصفة الكهنة ولم أرَهُ . وكان داريوس بن هستاسب قد همّ ان يأخذهُ عنوةً ثم لم يجترئ على ذلك فاستحوذ عليهِ بعدهُ ابنهُ اكزرسيس وقتل الكاهن الذي مانعهُ من الاستيلاء عليهِ وحمل جميع ما فيهِ الى خزائن قصرهِ . هذا اخصُّ ما في الهيكل وفيهِ ايضًا بعض اوانٍ . اه . وذكرُ استرابون المؤرّخ بقولهِ وقرب الحدائق المعلّقة قبر بعلوس وهو خرابٌ تام خرّبهُ اكزرسيس وكان على شكل هرم مربّع مبنيًا بالآجرّ علوهُ استادة واحدة في مثلها طولاً لكلٍّ من جهاتهِ . وكان في نيّة الاسكندر ان يعيد بناءهُ وكان يستلزم عشرة آلاف عاملٍ تعمل على مدّ شهرين لنقل أنقاضهِ وكسح موضعهِ من التراب والردم لكن المنيّة عاجلتهُ فمضى في سبيلهِ ولم يأتِ بعدهُ من اهتمّ بهذا المقصود . وذكرُ ديودورس في كلام من جملتهِ قولهُ وشادت سميرامس عدا هذه الاعمال هيكلاً في وسط المدينة لا تحقّق عنهُ رواية صحيحة لاختلاف اقوال الكتّاب فيهِ الاّ انهم اجمعوا على انهُ بناءٌ شامخ الارتفاع في اعلاهُ مرصدٌ للكلدان كانوا يرصدون منهُ حركات الكواكب فيعرفون اوقات طلوعها وغروبها . وهو مبنيٌّ بالآجرّ والحُمَر

(١) الزنة في اشهر الاقوال تعادل ٧٠٢٠٠ فرنك فيكون المجموع ٥٦١٦٠٠٠٠ فرنك

وعلى اعلاهُ تماثيل بوبتير وبونون وربا وهي مغشّاة بالذهب وامامها مائدة مغشّاة بالذهب ايضًا وكان عليها اوانٍ وتُحَف كثيرة انتهبها ملوك الفرس اه . ومن الناس من يظنُّ ان هذا البناء الذي يصفهُ هو برج بابل المعروف الآن ببرج نمرود وآثارهُ لاتزال بين أخربة بورسيبا على ما سنذكرهُ بعدُ . وقد اثبتوا بعد الفحص المدقّق ان ارتفاعهُ كان بنيف على اعلى رؤوس الاهرام المصرية بمئة قدم واذا كان ذلك صحيحًا فلا عجب اذا احصاهُ المتقدّمون في جملة الغرائب . اما القصر الملكي فمنشؤهُ بخنصّر وقد ورد ذكرهُ في كثيرٍ من مصنّفات القدماء ولاسيما اليونان فانهُ ما برح عندهم محلاً للعجب والاندهاش بالنظر الى ما كان عليهِ من السعة والعظمة وغرابة الاتقان وما بليهِ من الحدائق المعلّقة التي عُدّت في جملة عجائب الدنيا السبع . ومنشأها فيما روى ديودورس ملك من أعقاب سميراميس سألتهُ ذلك حظيّةٌ لهُ من بلاد فارس احبّت ان تنزل لها ما في بلادها من الروابي المكسوّة بخضرة الرياض والبساتين فأمر بانشائها على ذلك المثال . ولذلك جعلها على هيئة سطوح قائمة بعضها فوق بعض وكل واحدٍ من هذه السطوح يتأخّر عن الذي تحتهُ على شكل ما يُسمّى بالانفيلاد حتى كانت والاشجار عليها اشبه برابيةٍ خضراء ذات مروجٍ وخمائل رائعة . وكانت هذه الحدائق مربعة الشكل طول كل جهة من جهاتها ٤ فلترات اي نحو ١٢٠ مترًا وكل سطح من السطوح المذكورة يُرقَى اليهِ بسُلَّم بينهُ وبين الذي يليهِ والسطوح برمتها قائمة على عَمَدٍ وهي مفروشة بصفائح من الرخام طول الواحدة منها ١٦ قدمًا وعرضها ٤ اقدام . وهذه الرخام مستورة بخيزران قد غُيِّسَ في الحُمَر وفوقهُ صفّان من الآجرّ المغموس في الجصّ وفوق ذلك صفائح من الرصاص تمنع نفوذ الماء الى ما تحتها من البناء اذا سُقِيَ ما فوقها من الاشجار . وفوق الرصاص التراب المغروسة فيهِ اشجار الحدائق وهو من الكثرة بحيث يمكن ان تُغرَس فيهِ اعظم سَرْحةٍ . وكان هذا الموضع كلهُ مغطًّى بالشجر المختلف والمغروسات الانيقة ذات النشر والثمر . وفي داخل العَمَد المذكورة غُرَفٌ رائعة الاتقان محكمة الوضع ينفذ اليها النور من خلال العمد وفي الغُرَف الملكية . وكان احد العَمَد أجوَف من رأسهِ الى عقبهِ وفي داخلهِ آلات ترفع الماء من النهر فتصبّهُ في الحدائق اه . هذه صفة هذه الحدائق في الجملة وقد درستها الايام فيما درسته من تلك العظائم العجيبة فاصبحت تلاً من الحجارة والانقاض

القطن

القطن نبات يقوم على ساق ثم يتفرّع ويحمل كمائم تتفتح عن زغب ابيض يغزل وينسج . يزرع في البلاد الحارة والمعتدلة واجود مكان لزرعهِ قارة افريتيا . وهو اما نبات سنوي او نجم تعمر الى العشر سنين ولهُ اربعة انواع وتحتها تنوعات كثيرة تختلف باختلاف الاماكن